محاضرة قيمة:

في الشعر...

للمسيو پول فاليرى

عضو المجمع الفرنسي

عرضه وتلخيص للأستاذ محمد روحى فيصل

سيداتي وسادتي :

حديثنا الليلة إليكم في الشعر ! والموضوعُ دائر كما تعلمون الآن في كثير من الصحف والمجالس ، ولعل الغرابة أن ينال الشعرُ الاهتمام وتُبذل للفن الجهود في زمن مادى أخذته الواقعية المحسوسة ، وطغت عليه الوضعية العلمية ، وسادت فيه الفكرة الاقتصادية !

للشعر في الافهام معنيان : أولهما أنه مجموعة العواطف والانفعالات التي تُهيجها في نفوسنا أحداث الزمن ، ومجالى الطبيعة ، ومعاني الوجود ، وألوان الحياة ، فنقول منظر شعرى ، وظرف شعرى . وثانيهما أنه فن قائم وصناعة عجيبة ، يتناول الأهواء المشبوبة بالتنسيق والتأليف والجلاء ، ثم يبرزها لغة جميلة تطرب لها الأذن ويهتز منها القلب ! وبين المعنيين صلة شديدة وتباين كتباين الرائحة التي تضوع من الزهر ، والرائحة التي تضوع من الكيمياء

ومهما يكن من شيء فالناس لا يزالون في لَبْس من المعنيين ، وحيرة في الشعر والشعور ؛ وكان من أثر هذا أن طائفة من الأحكام والنظريات والمؤلفات قد فسدت وغُمُضت لأطلاق الكلمة الواحدة على معنيين شتيتين وإن اتصلت أسبابهما اتصالاً وثيقاً !

فالشمس الغاربة ، والغابة الوارفة ، والقمر الناعم ، والبحر العظيم — هذه وغيرها تبعث في الناس حين يستشرفون لها انفعالاتٍ وجدانية تختلف في الشدة والمدة والنقاوة والأثر ؛ وقد تكون أزمة الهوى ، وفاجعة الموت ، ونازلة الفقر ، أسباباً مباشرة لاضطراب نفسى عميق أو خفيف يلوّن الشعور ، ويشتت المعاش ، ويبدل المثل الأعلى ! ولكن هذه العواطف الانسانية المعروفة تغاير كل التغاير ما نسميه « العاطفة الشعرية » ، ولعل بيان أوجه التغاير والاختلاف لا يخلو من عنت ومشقة ، لأنهما في الواقع متحدان اتحاداً شديداً ما ينفصل أحدهما عن الآخر أو يبرز له ويسمو عليه ، فالعاطفة الشعرية تتصل أبداً بالحب والألم والخوف والغضب ، وما الى هذا من مشاعر النفس وأهواء القلب

وإنما العاطفة الشعرية عندى إحساس قوى بحياة غريبة ، وشعور واضح بعالم جديد جرّده المبين من نفسه لنفسه ، ثم قوّم أشياءه وأحداثه وأشخاصه بالميزان الذى له خاصة ، وخلع على ما فيه قيماً حديثة ، قد تتفق وقد لا تتفق مع القيم المألوفة التي تواضع الناس عليها في حياتهم الدارجة ! ولئن تشابهت أشياؤه بالأشياء ، وتعارفت الأحياء بالأحياء ، فلقد يشملها جميعاً قانون النفس العام ، وتصطبغ كلها بالشعور الانسانى ، تتجاذب تلك الأشياء والأحداث والأشخاص وتتنادى وتطرد لغاية عمّاها في دقة ونظام ؛ والأولى أن نقول إن الأشياء والأحداث والأشخاص تؤلف في العالم الجديد لحناً موسيقياً منسجماً لا ضجة فيه ولا نشوز ، يتملاه الشاعر ويستوحيه ويخضع له ! دنيا رحبة هادئة جميلة هي ملك المبين لأنها في نفسه ، ولأنها من خلقه ! ولعل هذا العالم الشعرى عائل من وجوه عديدة عالم الرؤى والأحلام التي تضطرب في خيال المرء ، وتطيف في رأسه الفاقى . . .

ولقد أحب أن أشير هنا ، وقد انحدرت « الأحلام » مع الحديث ، إلى أن جماعة الابتداعيين (الرومانتيك) وأدباء العصر الحاضر قد خلطوا بين الشعر والرؤيا ووحّدوا معناها ! نعم ، قد تكون الرؤيا والأحلام صوراً شعرية خالصة ، ولكنها صور بارزة مؤلفة من عمل المصادفة والاتفاق ؛ وما دامت كذلك فهي صور شعرية بالمصادفة والاتفاق

إن عالم الرؤى عالم غريب قد ملأ ساحته الشعورُ المبهم ، وانفرط فيه عقد المنطق المحترم ، وهبّ عليه إدراك غير إدراكنا ، وتفكير غير تفكيرنا ! فهو عالم مغلق تبرز الأشياء فيه على غير حقيقتها ولونها المعهود ، وهي إنما تصطبغ بأهوائنا المكظومة ومُثُلنا المرجوّة ورغائبنا الكامنة . والعاطفة الشعرية حالة نفسية كهذه الحال الطليقة تظهر على غير انتظام ، وتعمل في غير استقرار ، وتضمحل من غير انذار ! لقد تقوم في أنفسنا بالمصادفة وتختفي عن أعيننا بالمصادفة ! وعجيب — ياسادتي — أثر المصادفة العابثة في ظهورها وفنائها ! (تصفيق)

— ٢ —

يكر الزمان مسرعاً ولاَ يؤوب ، وتتجدد الحياة مشرقة ولا تتشابه ، وتزول الصور ماضية بدون أثر ! والله القادر الحكيم إنما تفرد بالطى والنشر ، والمحو والأبداع ، ثم أودع فى الحياة معنى الموت ، وفى الجذوة قوة الركود ، وفى الخلق سر الأعجاز ! ! ولكن الشاعر المبين لن يرضى عن اللحظة الحية التى تُطوى إلا إذا سجلها على القرطاس ، وأمدّ فى عمرها ، وأثبتها على الدهر ، كأنما يعارض انحدار الأشياء الى صندوق العدم ، أو يغالب عبث الليالى وتطور الوجود ، فهو يقف بالذاهب الآفل وقفة طويلة ممعنة فيقيد خواطره ، ويعلن أحاسيسه ، ويحيى حبه ، ثم ينتزع من الحياة قطعاً يقذفها فى إطار خالد جميل الى العصور التى تليه ، والأجيال التى تضطرب بعده على الأرض ! كذلك استطاع أن يستمتع بالعاطفة الشعرية الطليقة وأن يستحضرها فى نفسه كما أراد كما تُستحضر الرؤى بالتنويم ؛ والفنون كلها تقلب العرض الزائل إلى حال دائم ، والعمل الفنى إنما هو الآلة الحسية لهذا التوليد العجيب والخلق الموفق ؛ فالموسيقى والنحت والأدب والتصوير طرائق مختلفة للتمثيل والتعبير اقتضتها كثرة الحواس الظاهرة ، واشتباك النفس الباطنة ، وغموض المدنية الحاضرة ...

التمس الشاعر طائفة من السُبُل الملتوية لاستحضار العاطفة الشعرية ، ورياضتها على الفن . ولعل أقدم السبل المشروعة ، وأعمقها أثراً ، وأشدها تركيباً هى اللغة ! ولكن اللغة بطبيعتها المادية وسلطانها الواهى واستخدامها العملى أجهدت الشاعر أيما إجهاد ، وهو الذى يقوّم بها الشعر ويؤلف منها الجرس !

أرجو أن أظفر — أيها السادة — بعرض ما يكابد الشاعر من آلام ، ويبذل من جهود ، ويغالب من مصاعب

إن اللغة كما ذكرت أداة قديمة يخلص الناس بها إلى حاجات العيش ومطالب الجسد ، فهى على هذا أداة سمجة خلقتها المصلحة ، وشوّهتها الظروف ، وأخضعتها الشهوات ! فقيم الكلمات ، ومدلول الألفاظ ، وقواعد التركيب ، وفن الكتابة ، ومخارج النطق إنما هى أُلهيّة من الألاهى الطريفة نبعث بها على ما تقتضيه المآرب وترتضيه الأهواء . ولقد نجل مقررات المجمع الأدبى ، ونقدر عمل الطباعة والصحافة فى تحديد معنى اللفظ وكفّ شِرّة الفرد ، ولكن خصائص اللغة من حيث قدرتها على إبداع الجرس الموسيقى وتشقق المعنى الواحد فيها عن كثير من المعانى المندرجة لم تجد — وا أسفاه — من يرد عنها عادية النزوات وعُرف الأوضاع ؛ فقد ننطق بالحرف ونرسل الكلمة كما تقوى حناجرنا ، وتنفرج شفاهنا ، وتتسع ثقافتنا ، وتزخر نفوسنا فنحرف الكلم عن موضعه ، وندخل الفوضى على المفهوم ، وننشر الشك فى قيمة اللغة ! والحق أن اللغة لو أنها لم تصلح لغايات العيش ، ولم تشتمل على معنى السعادة لما كانت تكون وسيلة من وسائل الشعر والفن ، ومطلباً من مطالب الدقة والتعبير

هكذا ، يا سادتى ، شاء الحظ العاثر المشؤوم أن يستخدم الشاعر أداة حسية عملية ليحقق بها فناً أبى إلا أن يثور على الماش ، ويشرف على العمل ، ويسمو على المادة . . ! !

أما الموسيقى السعيد — والهنى على حظه — فقد يشرع فيما اختص له وتوفر عليه ، ووسيلته جاهزة سامية مستقلة ، لا يَشرَكه فيها أحد من الناس ، ولا تتدنى الى مالم تخلق له ، وهو إنما يعمد إلى مادة قد صهرتها العصور ، وهيأتها الطبيعة ، وحددتها الغاية ! لشدّ مايشبه الموسيقى الصّناع نحلة ولودا جاءت لتفرخ فوجدت الخلية قائمة على أحسن ما تقوم البيوت ، مقسمة على أدق ما تقسم الغرف ، فولدت مرتاحة هانئة ثم اهتمت للعسل وحده تجمعه من هنا ومن هناك ؛ كذلك رجل الألحان يؤلف فنه من غير جهد ، ويسلك سبيله بهجاً طروباً كأنما اللحن قد انسجم وبرز واكتمل قبل أن تمسه يد الموسيقى الفنان ! !

ذلك بأننا نعيش بالسمع فى عالم الأصوات ؛ ونحيا بالأذن حين تعمى العين ويعيا اللسان ؛ والأذن تدرك بطبيعتها أن الأصوات المتعالية إنما تتألف من وحدات بسيطة بالغة البساطة ، صغيرة بالغة الصغر ، حتى كأنها لا تقاس بشىء أو تلمح لوحدها ، وهذه الوحدات قد تنسجم لمسافات محدودة ، وتطرد بنسب معينة ، فتكون الصوت الموسيقى ، وقد تضطرب بغير نظام ، وتسير على غير منهاج ، فتكون الضجة الراجفة . فالأذن تعلم بالغريزة مكان الوحدة من الجرس ، وتتذوق بالفطرة نور الجمال فى الهمس ، وتدرك أن الفرق بين النغم والضجة كالفرق بين النقاوة والكدورة ، أو بين

النظام والفوضى ، ثم جاء العلم الطبيعى فأتم إدراك الغريزة وفطنة الأذن ، وهو العلم القديم الدقيق ، فقاس النسب ، واخترع الآلات وأبدع من الألحان مالا تستطيعه دنيا الطبيعة بذاتها …

وللموسيقى عمل السحر فى النفس ، تخلق جواً خاصاً بها لستُ أدرى ماطبيعته ، وإنما أعلم أنه جو هادئ جميل يتخدر فيه الشعور ، وتطير العاطفة ، ويحلو التخيل ، وتبرز الأحلام ! ولو أن لحناً شجياً انبعث خافتاً من كان فى هذه القاعة الرحبة التى يهزها صوتى المضطرب المتعاظم لرأيتكم جماعة تُميلون الرؤوس وترهفون الآذان إلى مصدر اللحن ، تتحسسونه وتتذوقونه ، وتمدونه فى أنفسكم وأنتم لا تشعرون ! أفلا فطنتم إلى الأشعة القوية التى سطعت عليكم من شعاع لطيف ، وإلى الدنيا الحالمة التى طغت عليكم إثر جرس خفيف ؟ ولقد يعطس شخص أو يقع كرسى أو يُفتح باب فتستيقظ أنفسكم الحالمة وكأنما صار لها مايصير للزجاج إذا كسر ، أو الحبل إذا تصرّم

تلكم الألحان الهادئة ، والآذان الواعية ، تعين الموسيقى على إحياء النفوس من غير تعب ؛ أما لغة الشاعر فكما علمتم ألفاظ جامدة مبهمة ، تخاطب الأذن والنفس على السواء ، وتدخل اليهما مزيجاً مضطرباً من الأصوات والصور ، وتثير فيهما ألواناً متداخلة من العواطف والميول . وهنا موضع الشذوذ ، فلستُ أعرف أثراً متداولاً أفرط فى الغموض والاشتباك كاللغة ، ولقد تقول كلاماً صحيحاً يقبله العقل ولكنه لا يهز الأذن ولا يطرب القلب ، أو تقول كلاماً منسجماً جميلاً ولكنه خلوٌ من التفكير والمعانى ! وليس أدل على اشتباك اللغة من نشأة هذه العلوم المختلفة التى تتظاهر كلها على شرحها وتفسيرها ، فثم علم النقد والأدب والبلاغة والمنطق والاشتقاق والنحو تشترك جميعها فى الكشف عما يحجب الألفاظ من الابهام والتعقيد . ولن يستطيع المبين أن يتجاهل هذه العلوم أو يثور على سلطانها أو يكتفى بالتوقيع على الأذن دون النفوذ إلى النفس !

ولكن الكلام كلامان : منثور ومنظوم ، والنثر والنظم مظهران قويان للغة ، وبينهما حـــدود على وضوحها متداخلة متشابكة . . . « تصفيق شديد »

— ٣ —

أذكر أنى كنت أحاضر مرة فى هـذا المعنى طائفة من الأجانب ، فلما بلغت هذا الموضع من الحديث إذا أحد المستمعين يتلو على رسالة طريفة بعث بها الكاتب (راكان) إلى صديقه (شابلان) يقول فيها : « . . . وأنت تستطيع أن تنمت نثرى عما شئت من الظرف والكياسة والبساطة ، فلقد اعتزمتُ على ألاَّ أحيد عن نصائح أستاذى الكبير (مالرب) ولا ألتزم مايلتزمه غيرى من الوزن والايقاع والجرس ، وحسبى الوضوح من تاج أزين به نسج ألفاظى ولفتات ذهنى ! كان مالرب الذكى يشبه النثر بالمشى ، ويقرن الشعر بالرقص ، ويقول إن ما نفعله مرغمين يستحق التسامح والاعتدال ، ثم لا بد فيه من التجاوز والاهمال ؛ وأما ما نعمله باختيارنا ورغبتنا فمن السخرية أن يكون المرء فيه ضعيفاً أو وسطاً ، فالأعرج مضطر إلى المشى اضطراراً ، ولكنه متحذلق سخيف لو راح يرقص على القالس والخطوات الخمس »

إن تشبيه النثر بالمشى والشعر بالرقص تشبيه خصب جميل لا أعرف أصح منه ولا أدق ولا أشمل ؛ فالمشى كالنثر يقصد به صاحبه أن ينال غاية ماثلة ويحقق فكرة مرسومة ، فهو يرجو شيئاً ، ومن أجله يمشى ، ولعله لم يدب برجليه ويضرب فى الأرض إلا لأن الباعث قد تحرك فيه وألحّ عليه ؛ وظروف المشى ، أعنى طبيعة الشئ وحالة البدن والأرض واشتداد الرغبة ، هى التى تحدّد سرعته وتعيّن وجهته ؛ فالمشى على هذا واسطة قائمة تزول متى برز وجه الغاية ، أو هو فعل متجدد سوف ينطوى بعد حين . أما الرقص فهو هو الواسطة والغاية ، ليس يعنى ولا يسير على غير هدى ؛ ولئن قُصد به شئ فهو الرياضة على الفن الجميل ، والشعور بالحياة السعيدة ، والاستمتاع بالمثل الأعلى ! على أن الرقص يستخدم نفس الأرجل والأعضاء والأعصاب التى يستخدمها المشى ، وكذلك الشعر أداته نفس الكلمات والصور والمعانى التى يقوم بها النثر عند البيان

إنما يمتاز الشعر من النثر بأنه يتناول الألفاظ على نحو من التركيب والتوجيه يخالف ما يتناول منها النثر فى أغلب الأحيان ، فنحن نعجب بالكناية والمجاز فى الشعر أشد العجب ، بل نحن لا نعجب بالشعر إلا إذا كان كله أوجله كناية ومجازاً . أما القول

بوحدة الشعر والنثر فهو قول خاطئ لم يقره النقد الصحيح ولم يسغه الذوق الحديث ، ولعل ما يجوز فى أحدها لا يجوز فى الآخر على أوجز تعبير

والمشى كالنثر يسلك به صاحبه أخصر الطرق وأقومها وأقلها عوجاً ومنعطفات ليصل إلى بغيته التى يرجوها دون تريث ولا تذبذب ، ولكن الرقص بخلاف ذلك لا يحلو إلا إذا أكثر من الروحات والغدوات ، وأفرط فى اللف والدوران ، وأمعن فى الجيئة والذهوب ؛ ولو سمح لنا الرياضيون لقلنا إن الخط المستقيم سبيل الماشى والناثر ، والخط المنحرف سبيل الراقص والشاعر !

تلك السماء تسح مطراً — هكذا يعبر الناثر فى نزول المطر الشديد ، وهكذا عُلّمنا منذ الطفولة على الكلام ، أما الشاعر فلن يبين كما يبين الناثر ويتكلم الناس وإنما يكسو الحقيقة العارية ، ويزين الصورة الواقعة ، ويعرض الحس فى إطار رائع يبهر البصر ويعجب البصيرة . وما ينبغى للشاعر الفنان أن يقول « تلك السماء تسح مطراً » حتى تحمل المظلة وتتقى البَلَلَ لأن « تلك السماء تسح مطراً » قاعدة الكاتب الناثر ، ينشىء فيوجز ويصرّح ثم لا يجمّل ولا يبالغ

يمشى الرجل متثاقلا أو مسرعاً إلى غايته ، فما يكاد يبلغها حتى يقف قائماً لا يسعى كأنما التثاقل والاسراع كانا من أثر الحاجة والالحاح ، فالرجل يكف عن المشى لأن علة المشى قد زالت ولأن غاية السعى قد برزت ! وهذا الأعرج الضعيف الذى ذكره مالرب فى حديثه إنما يجلس مستوياً على مقعده كما يجلس الراكض العانى بعد طول اللهث والتعب . كذلك لغة النثر تضطرب وتموت فى الذهن متى عرف معناها واستبانت غايتها ؛ فهذه محاضرتى إنما ألقيها على مسمعكم لتفهموا عنى ما أحب وتعتقدوا بالذى أعتقد ، فأنا أقول الآن نثراً ، ومتى انتهيتُ من الكلام وارفضّ جمعكم الحافل طارت الألفاظ سريعاً من ذاكرتكم ، وبقى الأثر منطبعا فى أذهانكم كأنما أقول ما أقول من الكلام المنثور لأدفنه بيدى وأذيبه متعمداً ، ولقد يتفاعل هذا الأثر الحديث مع غيره من الآثار السابقة كما تتفاعل فيما بينها عناصر الكيمياء ؛ ومهما تكن نتيجة التفاعل الفكرى فالألفاظ التى أقذفها إنما أقذفها لتتلاشى بعد حين كما يتلاشى البخار فى الفضاء . وكل محاضرتى أن تفهموا معناها لا أن تحفظوا مبناها ، لأن المعنى متى أشرق فى الذهن ووضح فى الخيال وجد اللفظ سجناً يحدُّ من سمته ويضعف من شأنه ؛ فالفهم والدقة والوضوح غاية النثر التى لا غاية له غيرها وأعنى أن الكلام المنثور يحيا حياة قصيرة ثم يموت . . .

وما ينبغى أن يحيا النثر إلا حياة قصيرة ثم يموت بعد أن يبلغ رسالته تامة صحيحة واضحة ! ولكن الشعر خالد تتجدد ألفاظه فى القراءة ، وتحلو معانيه عند الاعادة ؛ وقيمة الشعر فى شكله الظاهر وكلماته المزجاة ، قد انتظمت كما ينتظم العقد وانسجمت كما تنسجم الموسيقى ؛ فرؤوسنا تحفظ اللفظ تتلوه مترنمة هازجة وتعيده على نحو ما سمعته فى الرصف والاتساق . ثم لا تبالى ان تملت أو حزنت أو ثارت مادام فى إنشادها رنة الفرح أو أنة الألم أو نزوة الهوى . ولقد جهل قوم كثيرون طبيعة الشعر ، وهاموا فى وضع الحدود وتبيان المعالم فما نجحوا ولا استراحوا ؛ وعندى أن الشعر لفظ جميل تستمتع به الأفهام الراجحة ، وتتناشده الشفاه اللاغية ، وتهضمه النفوس الواعية . ثم تخرجه كما كان لفظاً جميلاً تبقى جدته على الزمان كأنما يستمان فى « ميكانيكية » متشابهة قوية رائعة . . .

هاتان نقطتان ثابتتان تقابل إحداها الأخرى على مسافة صغيرة ، يتأرجح بينهما رقاص مضطرب كرقاص الساعة ، قد تدلى وتذبذب فى جيئة وذهوب . أما النقطتان الثابتتان المتقابلتان فهما اللفظ والمعنى ، أو الشكل والفكرة ، أو الجرس والعاطفة ؛ وأما الرقاص المضطرب فهو النفس المتصـــفحة الممعنة ، تقرأ القصيدة المنظومة أول ما تقرأ ، فتجوز اللفظ لتفهم المعنى ، وتنسى الشكل لتذكر الفكرة ، ثم تخلص من الجرس إلى العاطفة تستطلع مطاويها كما هو الحال فى التخاطب والكلام ، وهنا فى هذه السطور يتساوى النثر والشعر ، ولكنه طور خاطف لا يلبث أن يزول . ذلك أن النفس القارئة تكر راجعة بعد هذا إلى اللفظ تعيده وتتملاه . ثم لا ترى خيراً منه صندوقاً يضم أشتات المعنى ، ويحفظ دقائق الفكرة ، ويعلن جمال العاطفة ! تعود إلى اللفظ بعد ما عرفت المعنى كما يعود الرقاص من جولتـه إلى حيث ابتدأ فى الجولان ! وهكذا تضطرب النفس القارئة بين اللفظ والمعنى كما يضطرب الرقاص بين النقطتين الثابتتين المتقابلتين ، وهذا

الاضطراب بين الظاهر والباطن هو الذى أسميناه « بالعاطفة الشعرية » فى صدر المحاضرة ، وهو غاية الشعر التى لا غاية له غيرها ، ولعل الشاعر الموهوب من يختار اللفظة الصالحة لأحداث الاضطراب النفسى ، وإحياء العاطفة الشعرية

فالشعر كما أراه يفترق عن النثر ولا يلتبس به ، وهو أشد ما يكون بعداً وتسامياً عن القصة والرواية اللتين تصفان حوادث الواقع وتعرضان مشاهد الحياة ، وهذا التباين نلمحه واضحاً فى الوضع الطبيعى الذى يأخذه قارئ الرواية وقارئ الشعر ، فالأول ينساق مع تيار الحوادث ، فيفخر أو يغضب أو يفرح أو يحزن ، وقد وضع جبهته بين كفيه ، وركب رأسه فيما يقرأ ، وتعجل التلاوة ليأمن الذى يلى ويطمئن للخاتمة ، فجسده غائب وحواسه فارغة ، وعقله منغمس تائه لا يشعر بما حوله ولا يدرك إلا ما هو فيه ، ولو أنصفنا لقلنا إن قواه الجسمانية قد انحلت ، وأن قواه النفسانية قد انقلبت عقلاً يمعن ويتلو ويتأثر ، أما قارئ الشعر فلا تنقسم طبيعته ولا تتوزع قواه ، وإنما يذهب فى القراءة بجوارحه كلها ما دق منها وما ظهر ، ما رق وما غلظ ، ما شرف وما سفل ؛ فالقصيدة تهيج نفسه وعصبه ، وتوقظ ملكاته الحسية والفكرية . ثم تريده على أن يتصور الأشياء ويتمثل الحقيقة كما هى غير محرفة ولا ملتوية ولا مضطربة ! !

ولكنى على هذا ألمح بين الشعر والنثر درجات من الصور خافية متوسطة تربط قطبين متقابلين فى الأدب ، وتصل مظهرين قويين للغة ، ثم تنشئ بينهما حدوداً على وضوحها متداخلة متشابكة . . .

— ٤ —

أينظم الشاعر مضطراً أم ينظم مختاراً ؟

هذا آخر ما أفكر فيه وأتحدث عنه ، والغريب أن الباحثين لم ينتهوا بعد من تقرير شىء فى هذا . فالجدال عنيف ، والتعقيد ظاهر ، والعمل شاق . وقد يئست طائفة من الشعراء وتبرمت بالقريض ، ثم قالت : إن مهنتنا تضنى النفس وتأكل القوى ، وصاحبنا ما لرب يزعم مخلصاً أن الشاعر الذى ينهى مقطوعته الفنية وجب أن يهدأ مرتاحاً بعد ذلك عشر سنوات ! !

ينظم الشاعر . . . ولكنكم تدرون متى ينظم الشاعر ، وما حاجتى إلى شىء تعرفونه حق المعرفة . ينظم الشاعر حين يفيض قلبه ويمتلئ صدره ، فينطلق لسانه ويقول شعراً ، ولكم وددت أن يكون هذا الرأى الفطير صحيحاً سديداً ، إذن لاحتمل الشاعر تكاليف الحياة ، ورضى البين عيسيور الشقاء ! ولكن القريحة الفنية قد تتبلد وتظلم حتى لا تعى أمراً ولا تنطق حرفاً ، فمن يقول بهذا الرأى الغرير يخضع الشاعر لسلطان القدر العابث ، ويغدو الانتاج الشعرى حينئذ مرهوناً بالمصادفة المواتية واللمحة المشرقة ، أو متصلاً بالوحى العالى والموهبة الخارقة . ولست أعلم افتئاتاً على حرية الشاعر وامتهاناً لكرامته كهذا الرأى القائل العاثر يجعله منفعلاً لا فاعلاً ، وحاكياً أميناً يقول ما يلقى إليه من الكلام . وهو ، على هذا ، يحاسب كما يحاسب مدير الصحيفة المسئول ، فما كان خيراً قالوا هذا من عند الله ، وما كان شراً قالوا هذا من عنده ! والعجيب أن الكثرة الغالبة من الشعراء تؤمن بهذا الرأى وتناضل عنه ، أو هى على الأقل لا تجد الغضاضة الذليلة بأن ترضى قانعة بعيشة المصادفة والوحى

توافرت الأدلة وأثبتت التجربة أن الشعر الذى يعترف بجودته وبلوغه المنزلة الرفيعة التى تحلى على القارئ أثر الوحى والاحساس النفسى ، إنما هو فى الواقع من عمل الجهد الدائب ، والارادة الصابرة ، والتفكير العميق . أفلا نحس بهذا المجهود الكبير يبذله الشاعر حين نقرأ قصيدة من قصائده الطويلة الجليلة ؟ فنحن نخطئ كثيراً إن حسبنا أن الشعر وحدة لا تقبل التجزئة ؛ وموهبة لا تقوى على المران ، وأثراً لا يخضع للزمن

لقد يمتاز الشاعر من بين الناس كافة بلحظات مشرقة خاطفة تعصف بذاته وكيانه عصف الريح بفروع الشجر ، فتتفتح لديه مغاليق نفسه ، ويطل على دنياه الكامنة ، ويلمح عجائب الروح . تلك لحظات ثمينة عزيزة تضىء ما اختبأ بين اللحم والدم ، وتبعث من المعانى والصور ما لا يفهمها أو يقدرها إلا الشاعر وحده ، لأنها مختلطة بأوضار المادة وصادرة عن أسرار الظلام ؛ وهى معان وصور لا تثبت للمنطق الظاهر ولا تلين للبيان الشعرى ، وكل ما فى الأمر أنها قطع تنتثر من أعماقنا على حالها الطبيعى كما تنتثر الأحجار الكريمة من جوف البركان . ولقد ينبغى أن نطرح الأوشاب ، ونحتفظ بالعنصر الصالح النقى لنذيبه فى قالب جديد ونقدمه جوهرة خالصة للناس

فالذين يؤمنون بالوحى الشعرى يقتلون العمل والابداع ،